نور جلال

ومضة

كان طريقًا مستقيمًا، ممرًا ضيقًا، وَسْطَ بَراحٍ مُلبَدٍ بالغيوم، ممتدًا إلى حدٍ لم يُدركه بصري، كنتُ أخطو خطواتٍ متعثرة- متخوفًا- وذاك الصغير بجانبي يقودني مُمسِكًا بيدي، تساءلت إلى أين؟

وكررت سُؤالِي ولكنه لم يُجِب. واصلت السير مرتعبًا،

فالعتمةُ تشتد، والطريق لا ينتهي، والبراح حولنا يبعث على الرهبةِ أكثر منه على الطمأنينة، أنهكني التعب، فَرُحتُ أتراجع في خُطواتي وهو لايزال يحثني على المتابعة، لكن آلام جسدي جعلته يتوقف، ونظر إليّ نظرةً حانية ثم أشار بكفه الصغير إلى مرمى البصر، فإذا بأبوابٍ مُفتَّحةٍ على جانبى الممر عليها شراشف مخملية مرخاة، نهضت مسرعًا وهرولت إليها والصغير خلفي يحاول أن يخبرني شيئا وسمعته يقول: ويحك؛ تمهل إنك إنْ تفتحه تَلِجهُ!

لم أنصت لكلماته وهممت بالأبواب على الجانب الأيسر حيث لمحت بأحدها أناسًا أعرفهم جيدًا وطالما لهوت وتسامرت معهم، أما الأبواب على الجانب الآخر بَدَت روعتها الخارجية لكن ما بداخلها كان مُبهم، حينئذٍ صرخ الطفل صرخةً انتفض لها جسدي فوجدتني في فراشي بين طيات غطائه الداكن،

أنا كما أنا، واقعي كما هو، تجاوزت الثلاثين من عمري- وقد سَئِمت الحياة- كل يوم أستيقظ في الموعد ذاته أغدو للعمل صباحًا ثم أروح في الظهيرة أسترخي أمام التلفاز أعبث بين محطاته وبيدي هاتفي الخلوي ألهث مع هذه وتلك، وأنا أنفث دخان سجائري

واحدة تلو الأخرى غير عابئ بأفاعيلها بصدرى وأنفاسي، الألم يعتصر قلبي وسنوات عمري تنفرط من بين يديّ كبحات اللؤلؤ، يتملكني اليأس مع فقدها حبة حبة، تُرى متى سيتغير القدر؟ وتنقشع تلك الغمة، أو تحدث المعجزة الكبرى وأُبعَثُ من جديد أو..

قاطعني رنين التنبيه بصوته المزعج يُذَكِرنى بموعد اليقظةِ المعتاد؛ بل الغفلةِ المعتاد، رمقته بنظرةٍ غاضبة وأخمدت صوته ولا زلت مستلقيًا بالفراش متجاهلًا ما يدعوني إليه، ثم أخذت التساؤلات حول ذاك الصغير تعبث بفكري مرة أخرى، وشعرت لأول مرة برغبة في الاستجابة لمناداته، غفوت وأنا غارق في التفكير بشأنه، فرأيته واقفًا على الجانب الآخر، ابتهج حين رآني ومد إليّ يده فاتجهت إليه ودنوت منه ثم شرعنا برفع الستور المرخاة، فإذا بنورٍ منبعث كأنه كوكب دُرِيّ، استفقت معه فتحت عيني، تأملت غرفتي، سجائري، آلة التنبيه المزعجة، تأملت نزواتي، نحيتهن جانبا؛ ونحيت ما فات من عمري معهن.. فذاك الصغير يناديني.